

توطئة تاريخية هادئة لما حدث الأحواز: كيف ضاع حل العقل بالمرضاة؟ - داود البصري

تظل القضايا العربية المنسية بحاجة لوقفات توثيقية، ولمراجعات مستمرة، ولتحسينات دائمة بأهمية حفظ وتوثيق ذاكرة الأجيال العربية التي أريد لها ان تتشبت أكثر فأكثر لتضيع بالتالي كل الحقوق. ولعل قضية تهيمش والغاء الهوية القومية والوطنية للشعب العربي في الأحواز أو ما يعرف بـ (خوزستان) في ايران هي واحدة من القضايا التي تتفنن العديد من الأوساط بابقائها مطمورة في غياهب النسيان بل وفي مسحها بالكامل من الذاكرة والوجدان العربيين، متبعين بذلك صيغة النفي المطلق لحقائنا هي أسطح من شمس النهار! فقبل أكثر من سبعة عقود ونصف العقد من الزمن العربي الضائع تداعت وانهارت امارة عربية كان لها من الأهمية الاستراتيجية في ما لو عاشت حتى يومنا هذا ما من شأنه ان يغير الكثير من الأحداث والتفاعلات التي حدثت في عالمنا العربي طيلة قرن الهزائم المنصرم، وحيث كان سقوط امارة عربستان العربية، العربية الروح والوجه واللسان عام 1925 جزءاً رئيسياً من الهجمات الاجنبية علي دول المنطقة وكياناتها لتجريدها من كل عناصر القوة، ولزرع بؤر توتر وألغام موقوتة وبناء مواقع متقدمة لصراعات مستقبلية جاهزة وتحت الطلب لتحطيم كل مشروع نهضوي يروم الانطلاق بشعوب الشرق نحو أسباب ووسائل الحضارة الحديثة، انها الفترة القلقة ذاتها التي حاولت تركيا الاتاتوركية سلخ لواء الموصل العربي والحاقه بالكيان الطوراني الناشئ بعد سقوط سلطنة آل عثمان، ولم تغلح في محاولاتها المستميتة في ذلك لكنها سلخت اقليم كليخيا عن سوريا بعد ذلك بسنوات 1939، وهي المرحلة التي شهدت أيضاً تزايد هجرة يهود أوروبا والشتات نحو فلسطين وزرع النواة الأولى للكيان الاسرائيلي، وتمثل امارة عربستان والمعروفة بـ (امارة المحمرة) - خورمشهر - حالياً، تجربة فريدة وحالة متميزة من حالات الغدر العربي لشعوب الشرق الأوسط.

لقد كان الصراع بين النفط والسياسة ولم يزل عاملاً مهماً من عوامل عدم الاستقرار السياسي في هذه المنطقة الحيوية من العالم التي حفلت بتدخلات سياسية معقدة أدت الي رسم خرائط سياسية جديدة علي الضد تماماً من رغبات الشعوب، ذلك ان المصالح الدولية والاقليمية المتناقضة صبت جميعها في مجري السيطرة علي أكبر ما يمكن من ثروات المنطقة وامتصاص طاقات ابنائها.

لقد كتب الدبلوماسيون الاجانب المنتمون للمدرسة الاستعمارية البريطانية القديمة عن خطوات الحكومة البهلوية الايرانية في محاولاتها للتخلص من مناطق النفوذ القبلية والسياسية في فارس (ايران) وأشاروا تحديداً لشيخ المحمرة وعموم عربستان الشيخ خزعل بن جابر بن مرداو الكعبي الذي كان يتمتع بسلطات شبه مستقلة في الأمور السياسية والمالية والعسكرية في المناطق الغنية بالبتترول والزراعة والمطلة علي شمال الخليج العربي، وحيث كان الشيخ خزعل قطباً سياسياً مهماً في بداية القرن المنصرم وحتى أوائل العشرينيات منه بسبب ضعف الملكية القاجارية الايرانية، وكذلك تؤكد بعض الوثائق البريطانية علي ان رضا شاه وبعد انقلابه وتسلمه للسلطة في طهران كان عاجزاً عن التصدي لانتفاضات قبائل اللر الفارسية بسبب افتقاره للسلاح الكافي سوي ذلك الذي غنمه من مخازن الشيخ العربي خزعل والذي كان حجمه كفيلاً بسد احتياجات الجيش الايراني وقتئذ؟! بينما لم يستطع خزعل الاستفادة من ترسانته تلك لحماية نفسه وتعزيز استقلال امارته فانهار أمام عدوه الايراني بينما كان ظالماً ومتجبراً وقاسياً علي رعاياه العرب! وتلك للأسف سمة الطغاة في كل عصر وأوان، فهم جبابرة علي شعوبهم وأبناء جلدتهم، فتران أمام العدو الخارجي! وهي صورة تكررت كثيراً في ما بعد في الخارطة العربية!

لقد كانت السنوات 1921 - 1926 من أكثر الفترات سخونة في التاريخ السياسي للمنطقة، ففيها حدثت سلسلة من المتغيرات والتطورات، وتشكلت دول واضمحت كيانات، وفي خلالها قام النظام الشاهنشاهي البهلوي علي انقاض حكم الأسرة القاجارية وقام رضا خان رأس النظام الجديد بتوسيع أراضي فارس التي تقلصت كثيراً بفعل نتائج هزائم القرن التاسع عشر أمام روسيا القيصرية، كما هدف رضا خان الي تكريس مركزية طهران وتوطيد النظام الجديد، وفي الجوار تعزز الوضع الدستوري للمملكة الجديدة الناشئة في العراق التي دخلت هي الأخرى في صراع دبلوماسي حاد مع تركيا وريثة السلطنة العثمانية للحفاظ علي عروبة وعراقية (لواء الموصل). وفي الجزيرة العربية نجح السعوديون في توحيدها بعد انهائهم لحكم الهاشميين في الحجاز وتأسيسهم لحكم مركزي قوي لأول مرة في جزيرة العرب منذ قرون طويلة، وكانت خريطة الشرق الأوسط قد تغيرت بالكامل بعد التشطير والتقطيع واعادة الرسم علي الرمال بالمسطرة والقلم من قبل مارك سايكس وجورج بيكو ووزارتي المستعمرات في لندن وباريس! لقد كانت منطقة (قوس البترول) التي تمثل خارطتها شكل (حدوة الحصان) والممتدة بين الكويت والبصرة وعربستان مسرحاً لمحاولة وحدوية رائدة لو تحققت لتغيرت موازين وانقلبت استراتيجيات اذ انه ومنذ عام 1909 كانت تتبلور محاولات لاقامة وحدة بين الامارات

الثلاث السالفة الذكر ولكنها اجهضت لأسباب عديدة ولقيام الحرب الكونية الأولى، وللقارئ ان يتصور ما يعنيه قيام دولة تتكون من الكويت والبصرة وعربستان!، وفي خضم الصراعات كانت السياسة البريطانية متعاونة مع حكام ايران الجدد (الأسرة البهلوية) وسرعان ما تنكر الانكليز وبخبثهم التاريخي المعروف لكل الخدمات التي قدمها لهم الشيخ العربي خزعل خلال حربهم في العراق ضد العثمانيين بعد ان وجد الانكليز ضالته في الضابط الايراني الأمي رضا خان الذي ساندوه في الاستحواذ علي الأحواز وتنظيفها من السيادة العربية، وضاعت المحمرة وسقطت عربستان مع ابعاد الشيخ خزعل الكعبي، اذ كانت أهداف السياسة البريطانية في المنطقة في أوائل القرن العشرين تتمثل في:

اعتراض الخطط الروسية القيصرية في التغلغل في ايران للمحافظة علي سلامة طريق الهند ولكن بشكل جزئي يوفر للروس استفادة جزئية من موارد شمال ايران بموجب معاهدتي (كلستان لعام 1813) و(تركمن جاي 1828) بعد هزيمة فارس أمام روسيا عام 1826. اما بعد الثورة البلشفية عام 1917، فقد وقف البريطانيون بوجهها أيضاً خوفاً علي مصالحهم في جنوب آسيا وافغانستان والهند والدولة العثمانية المحتضرة، وكان الخوف من البلاشفة هو السبب الذي تم علي أساسه عقد معاهدة 1919 بين اللورد كرزون وسفير ايران في لندن (وثوق الدولة) فيما كان الوضع الشعبي الايراني وحتى الرسمي في أروقة مجلس الأمة الايراني يرفض الخطط البريطانية وفي ظل هذه التداخلات جاء انقلاب رضا خان وسيد ضياء خصوصاً ان ايران كانت فوق البركان منذ ثورة المشروطة عام 1906، كما كانت بريطانيا حريصة في الحفاظ علي مصالحها السياسية والاقتصادية النفطية في عربستان بوجه التحديات الروسية، وجاء انقلاب فرقة القوزاق الايرانية بقيادة رضا خان نتيجة لرغبة بريطانية محضة في تكوين جيش ايراني عصري يستطيع مساعدة بريطانيا في الدفاع عن مصالحها في ظل الأزمة الداخلية البريطانية والصراع بين حزبي المحافظين والأحرار حينئذ، وكذلك لامتنصاص مؤثرات مبادئ الرئيس الأمريكي (ولسن) الداعية لحق الشعوب في تقرير المصير، لذلك فإن وجود الحكم العربي والشيخ خزعل الكعبي في عربستان كان يمثل عائقاً أمام انطلاقة رضا خان بسبب سيطرة الشيخ وأتباعه علي منابع النفط الجنوبية، وبشأن مصير خزعل فقد تفاوتت آراء الساسة الانكليز وبرزت مدرستان:

الأولى: تتعهد بحماية السلطة المركزية في طهران.
الثانية: تتعهد بحماية سلطة الشيخ خزعل لما يقدمه من حماية لآبار البترول ولأنه يشكل مع الشيخ مبارك في الكويت والسيد طالب النقيب في البصرة (قبل قيام الحكم الوطني) أحد أقطاب الثالوث المهم لحماية المصالح البريطانية في شمال الخليج .

لقد كان الشيخ خزعل متمرداً علي الدوام علي سلطة طهران ولم يلتزم بدفع الضرائب المقررة للحكومة الايرانية التي كانت شبه مفلسة مما اضطرهم لتكليف لجنة من المستشارين الانكليز لتسلم الأموال من خزعل! اذ يقول المؤرخ الايراني حسين مكي في كتابه تاريخ ايران في العشرينيات ونقلأ عن أحد الدبلوماسيين الأجانب ما نصه: ان رضا خان كان يهدف لافتعال فتنة في خوزستان (عربستان) كي يكون ذلك مبرراً لتجريد حملة عسكرية يحتل بها الاقليم العربي وينهي قضية الشيخ خزعل بشكل نهائي وكان ذلك بتشجيع وتأييد من السفير البريطاني السير بيرسي لورين، اذ سبق لرضا خان ان تحرش بخزعل وجرت بينهما مراسلات حادة مما اضطر خزعل لارسال برقية حادة للهجة الي رضا قال له فيها ما نصه: انني لا أعتز بك رئيساً للحكومة لأتلك رجل مغتصب للسلطة من أصحابها الشرعيين، وفرضت احتلالاً علي العاصمة، وأسقطت الحكومة الدستورية ظلماً وعدواناً! ومع تصاعد التوتر بين الطرفين كانت بريطانيا تراقب الموقف بحرص ورغبة علي عدم اشتعال الصراع بين الطرفين لخوفها علي منشآت النفط في عربستان وكذلك الخوف من ترسانة الأسلحة التي بحوزة خزعل والتي كانت تمكنه في حال الصدام العسكري من هزيمة الحملة الايرانية الحكومية. الا ان ذلك لم يحدث مطلقاً بعد ان برز التدخل البريطاني بتدخل السفير الذي هيا للقاء الخصمين اللدودين خزعل ورضا في الأحواز ثم أستدرج الشيخ خزعل لطهران وأنهى رضا الوضع لصالحه مستغلاً انقلاب الحليف البريطاني، ليعيش خزعل ما تبقي له من عمر تحت الإقامة الجبرية بينما توسع رضا خان ليفرض سلطته علي أماكن شاسعة من ما يعرف بايران اليوم، وليسدل الستار بذلك علي فصل مؤلم من فصول الصراع السياسي في المنطقة والذي كان ضحيته الشعب العربي في الأحواز وحيث أمعن الحكم الشاهنشاهي المقبور في محاولة محو هويته القومية التاريخية، فيما لا تطبق أصوات اخري تسمية الشعب العربي في الأحواز بل يفصلون عليها تسمية: الناطقين بالعربية! في محاولة لطمس هوية السكان العرب، لقد كانت الأحواز ضحية كبري كما كانت دمعة في عيون عرب المشرق .